

بقلم: فؤاد علي آل مكي

المبناء الاجتماعي ... وضرورات التغيير

التكوين الأسري ثانياً

كان حسن ذلك الشاب الموسيم والذكي يذهب كل يوم برفقة ابن عمه علاء، والذي كان في نفس العمر مع حسن، إلى المدرسة لسنوات. ولكن فجأة بدء علاء يتغيب عن الذهاب للمدرسة، حسن إفتقد ابن عمه علاء كثيراً ويحن لتلك الأيام التي قضوها سوياً، ولكنه يعلم أن علاء لن يستطيع أن يرافقه إلى المدرسة كما في السابق، لأن علاء أصبح في عداد المرضى النفسيين. فقد تسبب التأنيب المستمر والمقارنة مع حسن وغيره من الطلبة الأذكاء من قبل والدته إلى فقدان علاء لعقله ومن ثم فقدان مستقبله في هذه الحياة.

نعم أيها الأحبة، هذه قصة واقعية نقلتها لكم على لسان ذلك الشاب حسن نفسه بدون رتوش أو تزيين. وكلم لدينا اليوم الكثير من مشيدات هذه القصة المؤلمة، فدور الأسرة في بناء الفرد من أهم المؤثرات في حياة ذلك الفرد وأي نوع من التنشئة سيُنشأ عليها، إما سلباً أو إيجاباً، سيكون هو المحصلة النهائية لذلك الفتى أو لتلك الفتاة. لذا سنستعرض معكم أهمية التكوين الأسري في بناء الفرد.

الأسرة في الإسلام

للأسرة دور مهم في إيجاد الكيانات ونشأتها، ولقد عرف علماء الاجتماع الأسرة على أنها المؤسسة الاجتماعية التي تنشأ من خلال إقتران رجل وامرأة بعقد يرمي إلى إنشاء اللبنة التي تساهم في بناء المجتمع، وأن أهم أركانها الزوج، والزوجة، والأولاد. ويعتبار الدين الإسلامي هو دين التكامل، نرى أن الباري جل وعلا قد أولى اهتماماً بالغاً حول الكيان الأسري وبين في القرآن الكريم الركائز الأساسية لتكوين الأسرة، حيث تتكون العلاقة فيما بين الزوجين على أساس المودة والألفة. ويعدها بين الباري سبحانه كيف أن الأولاد يتبعون الأباء في سلوكياتهم وطريقة تعاملهم مع الآخرين من خلال ما تعلموه من الأباء (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيم إن ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء لئلا هم يربوا) 1-

وكذلك نرى من خلال الأحاديث الشريفة عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حول تكوين الأسرة والحث الدائم على إنشائها لأنها كما أشرنا سابقاً اللبنة الأساسية لوجود المجتمع وتكامله وأيضاً بقاءه، فما عليه الغرب هذه الأيام من تفكك وإنقسام إنما هو ناتج عن التفكك الأسري الذي تعيشه تلك الشعوب منذ زمن عندما كانوا يدعون إلى الإخلال بالنظام الكوني لتكوين الأسرة عبر الإنعقاد والمتحرر من فكرة الزواج والالتقاء والتلاحق كما البائهم -أجلكم الله- بدون أية روابط شرعية. فكان نتاجاً طبيعياً أن ينهار ذلك المجتمع بشكل تدريجي ويعيش في تفكك مستمر إلى يومنا هذا.

دور الأسرة في تكوين الفرد

"من الأهداف التربوية التي زرعها فكر السيد الشيرازي -قدس سره- في نفوسنا عبر محاضراته القيمة، كيفية التعامل مع الطفل كونه (أول الزرع) والغرس الذي يمكن أن يكون صالحاً أو طالحاً حسبما نتحكم به نحن الكبار وخاصة في المحيط التربوي الأول (العائلة) فالطفل هو مادة المجتمع الأولى وطريقة تربيته والواجب التي يعيشها هي التي تحدد نوعية هذا الطفل. شذى علي".²

نشأة الطفل ليس فقط من الناحية المثقافية فقط عبر الذهاب إلى المدرسة وتعلم مجموعة من المعلومات المختلفة هناك، وإنما يوجد نواحي أخرى يفترض على الوالدين التنبيه لها ومنها الناحية الأخلاقية على سبيل المثال، والتي تنشأ لدى الطفل من خلال ما يتعلمه في بيته بين والديه وإخوته. فالأسرة المحيطة بالطفل هي المربي الأول لسلوكيات وتعامل ذلك الطفل منذ الصغر مع الآخرين، لذا نرى أن سلوكيات الطفل في بداية إلتحاقه بالمدرسة تكون في العادة مشوبة بالحذر والخوف إذا ما كان الطفل قد تربى على الهدوء والانعزال، وفي المقابل نجد أطفالاً آخرين مشاكسين منذ اليوم الأول لهم في المدرسة، وهذا طبيعي بالنسبة له فلقد إعتاد على ذلك الفعل في المنزل وليس من الغريب عليه أن يقوم بتقليد ما يقوم به في المنزل أمام بقية الطلبة في المدرسة.

يتبين لنا جلياً أن دور الأسرة في تكوين حالة الفرد النفسية والخلقية مهم جداً منذ الفترات الأولى من ولادة الطفل وحتى فترة النضوج الفكري والاعتماد على الذات. فيجب على الآباء والتربويين التنبيه جيداً بأن مسلك الطفل وحياته المستقبلية يعتمد اعتماداً كبيراً على المحيط الأسري بالمقام الأول وكيف ينشأ ذلك الطفل. فإما أن يكون فرداً فاعلاً لنفسه وأسرته ومن ثم مجتمعة، أو ينزوي ويكون حبساً لإطر أو جدها لنفسه من خلال ما عاشه في واقع أسرته.

الأسرة المنتجة .. والتأثير في المجتمع

لا يطلق لقب الأسرة المنتجة على تلك الأسر التي تنتج مصنوعات يدوية وحرفية فقط، وإنما يطلق أيضاً على الأسر التي تخرج من بينها الكتاب والمؤلفين والأطباء وغيرهم. فمثل هذه الأسر أنتجت نتائجاً فكرياً عبر تنمية العقول لدى أبنائها. "من المتفق عليه أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يتأثر ويؤثر اجتماعياً، فيتأثر بأهله وبمجتمعه وبتاريخه، وبكل ما يحيط به، ليؤثر أخيراً في بناء شخصية أبنائه، ومن ثم في حياتهم، فيرسم لهم الأطر التي ضمنها يتحركون".³

نجد أن محصلة التربية السليمة التي تربى عليها ذلك الطفل ستكون من خلال ما يقوم به الشخص سواء لنفسه عبر بناء أهداف وتطلعات شخصية يصبو للوصول لها يوماً ما، أو عبر خدمة لمجتمعه. وهذه لها عظيم الأثر لما يحث عليه الدين الإسلامي معتبراً أن المجتمع يبني بسواعد أبنائه ولم الدور المؤثر، وبدون وجود هؤلاء الأفراد لن يتكون ذلك المجتمع التكافلي المتكامل والذي يعول عليه بقاء المجتمع وبالتالي بقاء كينونة الدين الإسلامي.

القصة التي تنقل عن الكيفية التي حملت والددة الشيخ الأنصاري (رضي الله عنه) بأنها كانت على وضوء طيلة أيام وساعات حملها به وبعد ذلك الكيفية التي ربته وهي متطلعة بأن يكون ذلك الفتى يوماً من الأيام المرجع الأعلى للطائفة. فحري بكل الأباء والمربين أن يأخذوها بأن يجعلوا لهم هدفاً حينما يرزقون بمولود ويبدأون بتنشأته على الأسس القويمة للدين الحنيف لكي يكون نتاجاً صالحاً في نهاية أمره

1- سورة الطور آية: (21).

2- شذى علي- بناء الأسرة المسلمة في فكر السيد محمد رضا الشيرازي (قدس سره)- شبكة النبأ المعلوماتية

3- -الدين والأسرة - مركز آل البيت العالمي للمعلومات